تصوف الأمير بين التأصيل والإبداع
فكرة "البرزخ" نموذجا

ملخص

لقد عمل "الأمير" على إحياء التصوف وتجديده بما يعبر عن نظرة صوفية جديدة وحركة إصلاحية في التصوف يدعمها جهاد ومحاربة الاستعمار، فالتصوف كحركة فكرية وممارسة عملية تأتي تتويجا لمسار ثري يعج بالأفكار وبالبحث المضني عن اليقين وعن الكمال. ولا أدل على ما نقول من الصدى والأثر الذي أحدثه الصوفية في العالم مغربه ومشرقه، ويأتي الأمير بتصوفه وارثا أكبر للشيخ الأكبر محي الدين بن العربي ويشكل حلقة مهمة في مسار التصوف الإسلامي وتطوره.

د.ساعد خميسي
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية
جامعة منتوري قسنطينة
الجزائر

مقدمة

إن "الأمير عبد القادر" وشيخه "ابن العربي" وبالاستناد لتجربة "أبي مدين شعيب" قد خالفوا القول السائد بأن المشرق العربي هو المؤثر دوما في المغرب. ومن عجائب القدر أن اجتمع شملهما في تربة واحدة بسفح جبل قسيون بدمشق.

Résumé

Héritier du grand maître “Ibn al-Arabi“, l’émir Abdelkader se révèle un grand rénovateur du mysticisme islamique. La présente étude tente de montrer comment sa quête de la certitude et du parfait l’a mise au devant du mysticisme occidental et oriental.

تمتزج وتتداخل في فكر "الأمير عبد القادر"، من خلال إشارات وتنبيهات "المواقف" المنطلقة من النص، المسائلُ الصوفية (الروحية) والفلسفية والكلامية وحتى الفقهية، بما يُصعِّب علينا الفصل والتمييز بين الأمير المتكلم والصوفي والفقيه، وبالأحرى بما يثبت لنا أن التصوف والفلسفة والكلام والفقه محاور لفلسفة إسلامية شاملة، أو لنقل لحكمة إسلامية وعرفان يصل الظاهر بالباطن والمعقول بالمنقول، والقول بالعمل.

© جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر 2011.

ولعل مسائل مثل الرمزية وما تمثله من حقيقة التصوف التي كلها رموز وإشارات يصعب على أفهام العامة دركها، ومثل فكرة البرزخ (الخيال) وما لها من أبعاد وجودية ومعرفية وقيمية، لها المنحى العقدي الواضح، وبعدها الكشفي والعملي المقترن بعلم السلوك والمبرر لكثير من الآراء والأفعال الصوفية التي يستغربها وقد يستهجنها من يجهل حقيقتها أو من يعمل العقل بقواعده الأرسطية الجافة، أو بتعبير "طه عبد الرحمن" من يُعمل العقل الصلب. بينما من يسلك دروب التصوف، أو على الأقل من يُعمل العقل الرطب، ولا يلتزم بصرامة المنطق الأرسطي، فإنه يكبر من شأنها ويستفيد مما تعطيه من معارف ومن صور فنية جميلة تتعالى عن رتابة الواقع، وتحلق في سريالية سبقت "وليام بليك" وغيره بزمن طويل.

أولا- الأمير الوارث الأكبر للشيخ الأكبر:

لا شك في أن الصوفي والمجاهد "الأمير عبد القادر الجزائري" الذي تحقق حلمه بأن يدفن بجانب الشيخ الأكبر "محي الدين بن العربي" وهو ما لم يتحقق للكثير من مشايخ التصوف الذين تمنوا مجاورة ضريح شيخهم كـ"صدر الدين القونوي" (ت 672هـ-1274م) وسائر تلامذته المباشرين الذين كان يدعوهم بعبارات: الولد والابن والمخلص، مثل " بدر بن سودكين الحبشي" وغيره...الخ أقول : لاشك أن الأمير تجاوز مجرد التأثر بالشيخ الأكبر إلى العمل على إحياء فكره وتجربته الصوفية، وهو ما دفعه إلى التأكيد بكل وثوق أنه الوارث الأكبر للشيخ الأكبر، حيث يذهب في "مواقفه" إلى أنه أحسن الناس فهما لـ: "فصوص الحكم" على حقيقة ما تلقاها "ابن العربي" إلهاما، ويذهب إلى أنه تلقى المعاني الحقيقية لـ"فصوص الحكم" إمدادا وفي الرؤى، كما تلقاها هو من النبي – ص- (1)

ولم يقتصر الأمر على " الفصوص" فحسب، بل تعداه إلى مختلف النصوص "الحاتمية" نظما ونثرا. وفي هذا الشأن يقول "الأمير عبد القادر" مشيرا إلى "ابن العربي" بعبارة "سيدنا" و"رضي الله عنه"، ومشيرا إلى نفسه بـ"الحقير":«...وهذا الذي ذكرناه في حل هذه الأبيات هو من أنفاس سيدنا – رضي الله عنه- وإمداد لهذا الحقير بالإلقاء في الواقعة، وإن كان مرمى سيدنا - رضي الله عنه - جل أن يصل إليه رام، وقد كنت رأيته، رضي الله عنه في مبشرة من المبشرات، فذاكرته في مسائل من "فصوص الحكم"، فقال لي: الشراح كلّهم ما فهموا مراده...فجعلت أتفكر في نفسي، لمَ قال مراده بضمير الغائب؟ ثم ظهر لي في الحال أنه يريد بذلك رسول اللهρ، فإنه هو الذي جاءه بكتاب "فصوص الحكم".» (2) وليست هذه الرؤيا الوحيدة التي يسردها الأمير، هناك غيرها من الرؤى التي يقول عن تأويل إحداها: «...عبرتها على أني قاربت المراد فيما كتبت.» (3) وهي إشارة واضحة منه أنه في شرحه للنص الأكبري أصاب أكثر من سواه.

ومن أهم ما قام به "الأمير عبد القادر" تجاه شيخه "محي الدين بن العربي" أنه أول من قام بنشر "الفتوحات المكية"، حتى أن "عثمان يحي" محقق هذا الكتاب أهدى عمله

كما هو مدون في أول صفحة من كتاب "الفتوحات المكية" لـ"الأمير عبد القادر" وجاء في هذا الإهداء قوله:«إلى رب السيف والقلم الأب الروحي الأول للثورة الجزائرية الخالدة الأمير عبد القادر الجزائري، تلميذ الشيخ الأكبر في القرن التاسع عشر وناشر الفتوحات المكية لأول مرة...» (4)

ولقد كان لثمار بعث "الأمير" للتصوف في العصر الحديث الأثر والامتداد في متصوفة القرن العشرين ممن ذاع صيتهم شرقا وغربا، وكان لهم مكانا في الفكر الإسلامي المعاصر أمثال: "التادلي" و"الشيخ أحمد بن مصطفى العلاوي" – ابن عليوة- (1286هـ/1869م-1353هـ/1934م) مؤسس الطريقة العلاوية بمستغانم، وأحد أبرز المتصوفة فكرا وممارسة إلى درجة أن أحد مفكري الإسلام المعاصرين عدّه و"التادلي" « من أعظم أولياء الله المسلمين وأعظمهم نفوذا في هذا القرن، قد اتبعوا أساسا تعاليم محي الدين». (5)

ثانيا- نماذج من الفكر الصوفي المتجدد عند الأمير:

1- الرمزية:

إن الرمزية شكل من أشكال التعبير اعتمده المسلمون في أشعارهم وفي مؤلفاتهم للتعبير عن أفكارهم وعن وجدانهم، متأثرين في ذلك بمصادر هامة منها: القرآن وما به من قصص رمزي، أو غير رمزي قابل للتأويل وموجه لاستلهام العبر. ولعل من مبررات اعتماد فلاسفة الإسلام والمتصوفة الرمزية في أعمالهم:

- الإفلات من تكفير أهل الظاهر لأهل النظر وأهل الباطن.
- يتيح الرمز لهم إمكانية التعبير عن أمور ومسائل توصلوا إليها أو بلغوها لا تقدر اللغة العادية على حمل معانيها.
- تفتح الرمزية النص على إمكانية الخلود من خلال الإمكانات اللامحدودة في تأويلها، فالنص الرمزي مفتوح على المطلق.
- تتيح الرمزية إمكانية التحرر من قيود العقل وضوابطه، وتمكن صاحبها من التعبير عن أحاسيس وعواطف بعبارات تتخطّى المألوف والمعقول، مثل الشعر.

إن الأمير عبد القادر واحد من هؤلاء الذين اعتمدوا الإشارة والرمز في التعبير عن أفكارهم، ليس خوفا من سلطة الفقهاء، لأنه يُقرُّ في مستهل كتابه: "المواقف" بأنه إذا وقف الفقهاء على ظاهر العبارة ورموه بالتكفير، فلا رد عليهم سوى تركهم وشأنهم، بل والدعاء لهم مع لزوم أن يعذرهم، لأنه كما قال:« الأمر عظيم، والخطب جسيم، والعقل عقال، والتقليد وبال، فلا عاصم إلا من رحم ربي» (6) واستدل قبل ذلك بقوله تعالى ↓ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا↑ (7). فالذي يتضح من خلال محتوى نصه الرمزي ومحاولة إدراك مدلوله أنه يحتوي علما لا طاقة لمن يقف عند ظاهر النصوص عليه، ولا طاقة لمن يقف عند حدود ما أعطاه العقل من معرفة مقيدة بقوانين صارمة على استيعابه، لذلك قال بأن العقل عقال. ولهذا لجأ إلى الرمزية ليتمكن من التعبير عمّا وصفه بالأمر العظيم بلغة تتجاوز اللغة العادية المتداولة بين الناس. وهنا يلتقي الأمير

مع من سبقه في اعتماد الرمز والأسلوب القصصي، ويحاول أن يكون امتدادا ومبدعا لا مجرد مردد، بما في ذلك شيخه وقدوته الشيخ الأكبر "محي الدين بن العربي".

فالناظر في مستهل كتاب "المواقف" يدرك أن الأمير حاكى "ابن العربي" بأن استهل كتابه بالحديث عن عقيدته الإسلامية الملتزمة بالكتاب والسنة، حتى لا يرمى بالتكفير، لكن بسرعة فاقت سرعة الشيخ الأكبر، إذ راح مباشرة، وباعتماد الرمز إلى التلميح الواضح بما يريد الوصول إليه من خلال الكتاب ككل، وهي فكرة الكمال والتحقق بالوحدة، كما تصورها لا كما يعتقدها البعض من اتحاد وحلول. وعبّر عن فكرة محاولة الوصول إلى الكمال وإدراك اليقين برمزية تلتقي وتتشابه مع رمزية "طواسين الحلاج" و"مواقف النفري" و"رسالة الطير"، و"حي بن يقضان" لابن سينا، و"رسالة الطير" للغزالي" وقصة "الشجرة الكونية والطيور الأربعة" لابن العربي، وحتى "حي بن يقضان لابن طفيل".

وفي محاولة لتجاوز شيخه "ابن العربي"، قال الأمير عن ما أراد الشروع في سرده من قصة رمزية تحمل معنى السفر نحو المطلق، نحو تحقيق الوصال والتحقق بالاتصال، قال على لسان جليسه في نادي من أندية العرفاء:« أحدثكم بحديث هو أغرب من حديث عنقاء مغرب، فاشرأبوا لسماعه، ومدوا أعناقهم...» (8) ثم يسرد الأمير ما جاء على لسان صاحبه من حديث عن الحقيقة المطلقة، وعن السبيل إلى الوصول إليها، وعن العجز في التعبير عليها، ثم عن تكذيب القوم لما يخبرهم وبه واتهامه بالجنون والسفه والعته (9)..ومن جملة ما يصل إليه هذا القائل هو التيقن بعد طول السفر بأنه كان يبحث عن شيء فوجده في ذاته، وعبر عن ذلك بقوله:« وبعد التعب والعناء، ومعاناة الضنا، وجدت هذه المعشوقة: أنا!! وتبين لي أنني الطالب والمطلوب، والعاشق والمعشوق. فما كان هجري للذاتي، إلا في طلب ذاتي... ولا وصولي إلا إلي». هذه النتيجة يعبر عنها الأمير في بعض أشعاره ويرددها في أكثر من موضع، حيث يقول (10):

ومن عجب، ما همت إلا بمهجتي ولا عشقت نفسي سواها، وما كانا

أنا الحِب والمحبوب والحب، جملة أنا العاشق المعشوق، سرا وإعلانا

ولا يتوقف الأمير عند هذا الحد من الرمزية وهي المشابهة نصّا ومضمونا لما جاء في "قصة الطير" لابن سينا و"الغزالي" وبعض رسائل "ابن العربي" مع اختلافات ليس هذا هو مقام توضيحها، بل يتوغل أكثر في الرمزية ليتحدث عن نفسه بأنه النموذج القادر على تحمل مشاق السفر نحو المطلق والتنعم بمجاورة المطلق، بل والفناء فيه، حيث يقول:« فلما تمت القصة...قلت لهم: يا قوم ألستم تعلمون أني طلاع الثنايا؟ ...فأنا آتيكم بحقيقتها ومجازها، وأفك لكم المعمى من ألغازها، أو أموت فأعذر، ولا علي إن لم أقبر...فقال لي بعض المستبصرين من الحاضرين، وكان ممن جرب هذا الأمر، وفر عن تجربة الدهر: إن صدقت لهجتك، وهانت عليك مهجتك، وأردت الوصل إلى ذلك

الجناب، وقطع تلك الجبال والبحار والهضاب، فاركب نسرا أو غرابا، وإنه لا ينال ما قصصت، إلا من كان علي الهمة قوي العزمة (11)... وما زلت ممتطيا صهوة النسر والغراب، محملا نفسي كل مكروه...إلى أن ظهرت لي الأعلام... وقد عرفت الحقيقة والمجاز...» (12)

2- البرزخ (الخيال):

بالإضافة إلى هذه النماذج من الفكر الصوفي الأصيل والمطور في أعمال "الأمير عبد القادر" هناك نماذج أخرى تحتاج إلى وقفة أطول وإلى تحليل أكبر وأعمق، مثل نظرة الأمير لقوة الخيال في الإنسان باعتبارها البرزخ بين المحسوس والمجرد، وباعتبار البرزخ هو الخيال وهو العماء وهو الوجود والعدم، بل الكون كله خيال في خيال، كما قال "ابن العربي" وحاول الأمير شرحه وتوظيفه في كثير من المسائل الصوفية والفلسفية والعقدية التي تطرق إليها في مواقفه وفي مختلف أشعاره، بل وفي ممارسته العملية التي تعج بالمواقف الأخلاقية والجمالية الدالة على صفات الإنسان الكامل التي تحدث عنها المتصوفة عبر العصور ورام الأمير الوصول إليها، وهي ما رفعته إلى المنزلة العليّة في العالم بأسره ودعت إلى وضع النصب التذكارية له في مشارق الأرض ومغاربها.

أ- وحدة مفهوم الخيال:

عند دراستنا للخيال عند "الأمير عبد القادر"، كما عند شيخه، تتداخل مفاهيم كثيرة تتعلق به، منها: "العماء" و"عالم الخيال" و"حضرة الخيال" و"عالم المثال"، إلى غير ذلك من المصطلحات التي تعبر كلها عن الخيال، لكن بمعان تختلف باختلاف وظائف الخيال وطبيعته الوجودية والمعرفية، وتجتمع جميعها في كلمة "البرزخ".

والبرزخ في اللغة هو: «ما بين كل شيئين» (13).وقد ورد ذكر هذه الكلمة في القرآن الكريم في قوله تعالى:[بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ] (14) وفي قوله تعالى: [مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ] (15) وكذلك في قوله تعالى: [...وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا] (16).

يضبط "الأمير عبد القادر" مفهوم البرزخ من خلال تفسيره وتأويله لقوله تعالى: [مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان] فيعرفه قائلا:« كل شيئين متقابلين فلا بد أن يكون بينهما حاجزا معقولا يفصل بينهما، بحيث لا يختلط أحدهم بالآخر، يسمى برزخا، لا يكون عينهما ولا غيرهما، وفيه قوتهما معا...يكون بين محسوسين، كالخط المعقول الفاصل بين الظل والشمس، وقد يكون بين معقول ومحسوس، وقد يكون بين موجود ومعدوم، وبرزخ البرازخ كلها وأجمعها: الحقيقة المحمدية.» (17)

وعلاقة البرزخ بمعنييه اللغوي و القرآني بـالأمير عبد القادر وبشيخه "ابن العربي" تكمن في أن كبير فلاسفة المتصوفة اعتقد بأن البرزخ لا يقتصر على مجرد الحاجز بين شيئين، يفصل بينهما أو يصلهما، كالخط الفاصل بين الظل و الشمس، بل الإنسان موجود في برزخ (18)، والكون كله عبارة عن برزخ، لأنه –أي الكون– إن هو إلا

مجموعة من أشياء منفصلة أو متصلة فيما بينها، فلدينا برزخ بين فناء قديم قبل الخلق، وبين فناء لاحق بعد الموت، وللنهار برزخ جامع بين الليل والنهار، والإنسان برزخ اجتمعت فيه الروح من الملأِ الأعلى أو من عالم الغيب ببدن من المادة أو من عالم الشهادة (عالم الكثافة)، والحياة في القبر برزخ بين الحياة الدنيا ويوم البعث، كما نص على ذلك الحديث الشريف.

خلاصة القول أن البرزخ هو كل ما توسط أمرين ففصل بينهما أو وصلهما، وما هو إلا الخيال لهذا قال "ابن العربي" بأن الكون كله خيال في خيال (19)، وهو الأمر نفسه الذي يذهب إليه الأمير عبد القادر فيردد قول الشيخ الأكبر نظما (20):

إنما الكـون خيال وهو حـق في الحقيقة

كل من قـال بهذا حـاز أسرار الطريقـة

ويزيد في تبسيطه وتوضيحه وربطه بمسائل فلسفية فيخالف جزئيا موقف السفسطائية في نسبية الحقيقة وتعلقها بالخيالات ولو كانت حسية، مما يعني أنه يوافقها جزئيا، وليست هي المرة الوحيدة التي يتفرد فيها الأمير وشيخه بموافقة السفسطائية، خاصة في فكرة أن الحس لا يخطئ عندما يقر بحركة البحر وثبات السفينة، أو عندما يقر بمرارة العسل إذا كانت الأداة الحسية بها داء، فما وصف الحس إلا ما أدرك، ولا يمكنه أن يقول خلاف ذلك، وعن اعتبار الكون خيال يشرح الأمير قائلا: « وقد وافقت السفسطائية على كون كل محسوس من العالم خيالا، ليست له حقيقة. فلو قالوا كقول العارفين: العالم خيال، وباطنه حق ثابت، أي هو حق في صورة خيالية، لأصابوا الحق...» (21)

يتواجد الخيال في فلسفة الأمير عبد القادر وشيخه ابن العربي في الكينونة الإلهية قبل أن يخلق الكون، إلى الصورة في المرآة، إلى ظلال الأشياء التي تقابلها أضواء فتدركها أبصار قد ترى بعين الخيال، وقد تكون رؤى المنام، وقد تكون لا شيء؛ لأن الخيال له الوجود كما له العدم. هو أداة معرفية، من جهة، وله وجوده المعقول في ذاته، من جهة أخرى.

وكنموذج عن الحضور القوي لمفهوم البرزخ بتعدد معانيه و بأبعاده المختلفة من مناح فلسفية وكلامية بطابع صوفي جوهري لدى "الأمير عبد القادر"، وهو امتداد لما ورثه عن الشيخ الأكبر نقف عند أحد الأبعاد الوجودية لمفهوم البرزخ عند صاحب المواقف،من خلال تفسيره وتأويله لقوله تعالى[**هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ**] **(22)**

إنها آية تتضمن صفات متضادة، حقيقة البرزخ جامعة بينها، سواء من حيث تجاوزها لمبدأ عدم التناقض وهو تجاوز لقوانين العقل، أو من حيث اجتماع المتضادات في إطار الوحدة التي تقف دوما خلف الكثرة، فالصيف والشتاء وسائر الفصول المختلفة تجمعها السنة الواحدة والليل والنهار يجمعهما اليوم الواحد.

وهنا يحدد الأمير البرزخية في حقيقة الممكن الذي ينتقل من حال الأعيان الثابتة إلى حال الوجود الفعلي، وإن شئنا القول بالمصطلح الفلسفي: الانتقال من الوجود بالقوة إلى الوجود بالفعل، وهذا في صدد طرحه لمسألة فلسفية وكلامية احتدم حولها النقاش في الحقل الفلسفي والكلامي في التراث الإسلامي، وهي مسألة الحدوث والقدم، والتي يعتقد الأمير أن القائل بأحد الأمرين إما الحدوث أو القدم محجوب عن عين الحقيقة، وينسب القول بالحدوث للمتكلمين والقول بالقدم لبعض الفلاسفة، حيث يقول عن العالم وعن الإنسان باعتباره نموذج العالم، في مستهل تأويله للآية السالفة الذكر:«المحجوب حال حجابه يعتقد أن له وجودا مستقلا منفصلا من الوجود الحق، أما حادثا كما هو معتقد المتكلمين، وأما قديما كما هو معتقد بعض الحكماء. كما يعتقد أنه هو الظاهر بالصورة المحسوسة المنسوبة إليه، المسماة يزيد أو عمرو، وكما يعتقد أن له صفات مغايرة لصفات الحق-تعالى- من قدرة وإرادة وعلم ونحوها، كما يعتقد أن له أفعالا صادرة عنه، هو فاعلها، إما خلقا أو اكتسابا.» (23)

لم يكتف الأمير بالحديث عن مسألة القدم، بل ساوقها بمسائل فلسفية وكلامية في: الألوهية، وتعنى بالصفات الإلهية وعلاقتها بالذات، وأخرى لها بعدا إلهيا لكنها تتعلق مباشرة بالإنسان وبصفاته وأفعاله. هل هي من خلقه كما يعتقد المعتزلة؟ أم من خلق الله ومن كسب البشر، كما يذهب إلى ذلك الأشاعرة؟

ويلاحظ لدى الأمير أسلوب نبوي في تناول المسائل المختلفة وهو الأسلوب نفسه الذي يتبناه ابن العربي، ومؤداه أن الخوض في مسألة يجر إلى تناول مسائل أخرى لا يقتضيها مقام المقال بشكل مباشر، اقتداء بالرسول – ص- الذي أجاب عن سؤال صلوحية ماء البحر للوضوء بالقول:«الحل ميتته (24)» فأجاب ضمنيا على أن الماء صالح للوضوء، وعلى سؤال لم يطرح وهو: هل يجوز أكل ميتة البحر؟

إنها أفكار صوفية فلسفية، تعبر عن تصوف عملي، وعن فكر فلسفي، وعن عقيدة تنسجم مع الممارسة والفكر الصوفيين، مما يدفعني إلى البحث في ما يمكن تسميته بعلم كلام صوفي، وهذا التداخل بين الفلسفي والصوفي والكلامي هو من طبيعة التداخل والتكامل بين العقل والكشف، من جهة، وبينهما والدين، من جهة أخرى، مع الإشارة أن الكل يصب في خدمة الحقيقة الدينية. ونموذج التداخل فكرة البرزخ أو الخيال المطلق أو العماء وسائر ما تعرف به من أسماء تنتهي سواء إلى الفكرة الفلسفية العقدية القائلة بأن خلف الكثرة لا بد من وحدة، أو الفكرة اللغوية بأن الشيء الواحد قد يكون له تعدد في الأسماء. ولهذا تعبر كلمة "العماء" على الحقيقة المحمدية، وتعبر كلمة الخيال عن العماء، مما يعني أن الحقيقة المحمدية هي الخيال من حيث شموليته وجمعه، لا من حيث الفصل والتجزء.

ب- البرزخ و تعدد أسماء الحقيقة المحمدية:

يذهب "الأمير" في الموقف التاسع والثمانين في تأويل قوله تعالى:[وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ] (25) إلى أن إرسال محمد – ص- رحمة للعالمين لم يكن إرسالا

من حيث الجسد الظاهر وإنما من حيث الحقيقة الباطنة أو حقيقة الحقائق، ولذلك عمت الرحمة كل شيء، سواء في زمن بعثه جسدا في قومه، أو قبل أن يخلق الله آدم والخلق كله. ويتعلق هنا مفهوم البرزخ بالحقيقة المحمدية من حيث أن وجودها مقترن بأسماء الله وصفاته قبل أن تصبغ الأعيان الثابتة بوجوب الوجود بعد أن كانت في حال العدم، أو في حال الأعيان الثابتة. فالحالة الوسطى بين العدم الوجود هي البرزخ، وهناك كان الأمر الإلهي بإرسال محمد – ص- رحمة للعالمين، لهذا كانت تلك الرحمة هي الحقيقة المحمدية وهي البرزخ كما أنها هي بعينها روح الأرواح والعماء وسائر الأسماء التي يجعلها "الأمير" مرادفة للحقيقة المحمدية.

وفي هذا الصدد يقول الأمير:« ..المراد من إرساله رحمة للعالمين ...هو إرساله من حيث حقيقته التي هي حقيقة الحقائق، ومن حيث روحه الذي هو روح الأرواح. فإن حقيقته –ص- هي الرحمة التي وسعت كل شيء، وعمت...حتى أسماء الحق –تعالى- من حيث ظهور آثارها ومقتضياتها...وهذه الرحمة هي أول شيء فتق ظلمة العدم، وأول صادر عن الحق - تعالى- بلا واسطة، وهي الوجود المفاض على أعيان المكونات...ولهذه الحقيقة المحمدية أسماء كثيرة باعتبار كثرة وجوهها واعتباراتها...فإن كثيرا من الناس الذين يطالعون كتب القوم – رضوان الله عليهم- حين يرون هذه الأسماء الكثيرة يظنون أنها لمسميات متعددة، وليس الأمر كذلك...» (26) ويشبه الأمير هذا التعدد في الأسماء للحقيقة المحمدية، والذي يتضمن مفهوم الخيال والبرزخ والعماء بتعدد أسماء :«السيف، والصارم والقضيب، والهندواني والأبيض، والصقيل...ونحو ذلك لمسمى واحد.» (27)

ومن هذه الأسماء الكثيرة تستحوذ الأسماء التي لها مدلول واعتبار البرزخ والخيال على النسبة الغالبة فيها، ومنها (28): التعين الأول، أمر الله، سدرة المنتهى، الحد الفاصل، مرتبة صورة الحق، الإنسان الكامل، القلب، الروح الأعظم، التجلي الثاني، حقيقة الحقائق، العماء، الروح الكلي، مرآة الحق، المادة الأولى، الفيض الأول، الدرة البيضاء، مرآة الحضرتين، البرزخ الجامع، واسطة الفيض والمدد، حضرة الجمع، الوصل، مجمع البحرين، مرآة الكون، الظل الأول، حضرة الأسماء والصفات، الحق المخلوق به كل شيء...إلى غير ذلك مما يطول ذكره، على حد تعبير الأمير عبد القادر. ولا غرابة في أن يكون للخيال كل هذه المعاني التي ترادف الحقيقة الجامعة، فهو الوحيد الذي يجمع بين المتضادات ويشملها جميعا فيشمل الكون كله، إنه: واسع، ضيق، موجود ومعدوم، واصل وفاصل، هو كالخط بين الشمس والظل، وهو في الآن نفسه "العماء" حيث كان فيه الإله قبل أن يخلق الكون.

هو عالم الخيال المطلق، وهو أعلى مراتب الخيال وعوالمه، وأول خيال من حيث الوجود، كما أنه برزخي، لأنه يتوسط عالم الوجود المطلق وعالم العدم المطلق، يسمى هذا النوع من الخيال بـ"العماء" (29) أو السحابة الأولى، أو "الغمامة" ومصدر هذه التسمية ما يورده "ابن العربي" من حديث للرسول- ص- عندما «قيل له: أين كان ربنا

قبل أن يخلق السماء والأرض؟ فقال صلى الله عليه وسلم في عماء بالقصر والمد ما فوقه هواء وما تحته هواء» (30).

عند ذكر العماء يطرح الأمير التمييز من حيث الاعتبار، أيضا، بين الخيال المتصل والخيال والمطلق، فالعماء هو الخيال المطلق، أو المنفصل، بينما الخيال الذي هو قوة معرفية في النفس البشرية فخيال متصل، مقيد بما هو متاح للإنسان من أدوات معرفية قاعدة بياناتها ما يعطيه الحس، لذلك كان مقيدا، بينما العماء أو الخيال المطلق، فله الوجود المعقول لا المحسوس كما يبين الأمير في نصوص كثيرة في مواقفه. وهنا خطأ السفسطائية في نظر الأمير لمّا اعتقدوا أن الشيء المتخيل هو عدم، بينما الحقيقة التي قصدها الصوفية بقولهم العالم كله خيال، حسب الأمير، هو التعدد والتغير والتحول الذي يطبع الأشياء بين الكم والكيف، والظاهر والباطن، فكل هذا يخالف مفهوم الثبات الذي للحقيقة، مما يجعله خيالا في خيال.

وعندما نقول على لسان الصوفية بأن العالم خيال، فلا يعني ذلك أن إدراكه يكون بقوة التخيل التي في أنفسنا، بل هو خيال في ذاته وله الوجود المعقول من حيث هو كذلك، لا من حيث ما تدركه قوى النفس، كما يذهب إلى ذلك "ابن خلدون" وهو مذهب خاطئ في رأي "الأمير" الذي يقول في صدد حديثه عن الخيال المطلق:«...ومن هنا قول سادتنا أهل الله: العالم كله خيال، لا يريدون أنه عدم محض، كما تقول السوفسطائية، أو أنه لا وجود له إلا في الخيال المتصل، كما توهم ذلك كثير من الجهلاء بطريق أهل الله، كابن خلدون في مقدمته للتاريخ الكبير، وأضرابه، فردّ عليهم بجهل» (31)

فالمراد بالخيال المطلق، أو العماء في نظر الأمير هو: « جوهر العالم...[و] هو الخيال المنفصل، ويقال: الخيال المطلق، ويقال الخيال المحقق، بمثابة المرآة التي بسبب التوجه عليها ظهرت الصور الخيالية في المرآة، وظهور صور العالم فيه هي المتخيلات، وإنما سمي بالخيال لأن كل شيء ظهر فيه ظاهر، بخلاف ما هو عليه...ولا شيء مما سوى ذاته- تعالى- على حالة واحدة، بل يتبدل من صورة إلى صورة دائما أبدا، وليس الخيال إلا هذا، فلو كان وجودا حقيقيا ما تغير ولا تبدل، لأن الحقائق لا تتبدل.» (32)

يحتل الخيال في نظر الأمير كما كان من قبل في نظر شيخه مكانة مركزية على كل المستويات: الوجودية الغيبية والشهودية، وما بينهما من اتصال أو انفصال، ومعرفية بحيث يشكل موضوعا معرفيا ووجوديا يجب أن يدرك ويعرف، وبمعرفته يعرف الله، كما أنه أداة معرفية هامة توجد في الإنسان كما توجد كل حقائق العالم فيه مختصرة. هذا التواجد في كل شيء دفع إلى الاعتقاد بأن الكون كله خيال، وبأن الإنسان خيال أيضا، فالخيال له وجوده المستقل عن الإنسان، بمعنى أنه إذا كان الخيال أداة معرفية في الإنسان تستفيد من الحس وقد تفيده بالتأثير فيه، فإنها تفيد العقل في بناء الأقيسة المنطقية ومختلف الاستدلالات والبراهين أيضا، باعتماد العقل على الفكر وعلى ما

خزن في الحافظة من صور محسوسة أو ما بخزانة الخيال من صور قابلة للاستحضار أو صور مبدعة، فهو برزخ بين المحسوس والمعقول، بين المتوهم والحقيقي، بين ثلاثية الأبعاد الزمنية: الماضي والحاضر والمستقبل، يتخلل كل احتمالات الثنائية بينها، كوجوده برزخا بين الحاضر والماضي وبين الحاضر والمستقبل أو بين الماضي والمستقبل وغير ذلك من الممكنات، وصولا إلى تجاوز الكل أو الجمع بينهم، لأن من خصائصه أنه موجود ومعدوم. وقبل أن يكون أداة معرفية لها ما ذكرناه فإنه ذو وجود مستقل سابق عن وجود الإنسان ومرافق له، كان محلا للموجودات في حال عدمها، وعندما نقول محلا فإنه يحوز رمز الأنوثة مما يعطيه القدرة على الخلق والإبداع، وعند خروج تلك الأعيان الثابته إلى وجود في عالم التمثل والتجسد، فذاك هو عالم الخيال أيضا.

إن الخيال هو القدرة الإلهية الممنوحة للإنسان كي يتمكن من أن ينزل المعاني المجردة في قوالب حسية، ويعلو بالمحسوسات فيجردها من كثيفها، يصغِّر الكل ويستحضره في جزء متناه في الصغر، ويكبر الجزء حتى يرقى به إلى المطلق، ولهذا كله كان الخيال في نظر "ابن العربي" وتلميذه "الأمير عبد القادر" هو التمثل واللاتمثل، هو الوجود وهو العدم، ومن حاز قدرة الخيال كأداة معرفية و أدركه مجالا معرفيا له صلة بالألوهية فقد بلغ الكمال وذاق علما أحلى من مذاق العسل. وهنا تمثيل آخر ونشاط آخر للخيال الأكبري بأن تمثل الخيال علما له ذوق أحلى من ذوق ما يخرج من بطون النحل ووصفه الله بأن فيه شفاء للناس.

وانطلاقا من النظر إلى الخيال كموجود خارج عن الإنسان، ثم كقوة معرفية في الإنسان، يصبح هو العارف وهو المعرفة، وانطلاقا من كل ما يعطيه الأمير عبد القادر من خصائص يصبح الخيال عنده أهلا لأن يكون الأحق باسم الإنسان الكامل، المرادف للحقيقة المحمدية، كما رأينا، وهو الذي يدرك حقيقة الصلة بين الحق والخلق، فيدرك ما في الخلق من صفات إلهية وما في الحق من صفات الخلق، وذلك كله بحكم إدراكه لذاته ومعرفته لها، لأنه "من عرف نفسه عرف ربه".

خاتمة

إن النظر للخيال بهذا المعنى له من الراهنية ما يدل على القول بأحد الأمرين: إما أن الأمير وسائر الصوفية الذين استقى منهم أفكاره سابقين لعصرهم، وخاصة الأمير الذي كان بمثابة من يسبح عكس التيار في عصره، فإذا كان "ابن العربي" و"أبو مدين شعيب" قد عاشا في فترة ازدهار التصوف وتقهقر أنصار العقل من النظار ومن فلاسفة وعلماء الكلام، كما يقر بذلك "ابن خلدون" في مقدمته، فإن الأمير عاش في قمة عصر العقلانية بفكر يفرض نفسه اليوم في عصر ما بعد الحداثة. وإما أن مسار الفكر الإنساني يلتف على نفسه ويتلون في كل زمن بلون ليشكل دائرة التداول ثم الجمع بين ألوان شتى.

لقد عمل "الأمير" على إحياء التصوف وتجديديه بما يعبر عن نظرة صوفية وحركة إصلاحية في التصوف يدعمها جهاد ومحاربة الاستعمار. إن التاريخ لم ينصف المجددين في التصوف، وعدهم في مجابهة المصلحين الذين حاربوا في التصوف منحى سلبيا لبعض أتباعه ومظاهر تعبر عن جمود، ولا تمت بصلة لحقيقة التصوف كحركة فكرية وممارسة عملية تأتي تتويجا لمسار ثري يعج بالأفكار وبالبحث المضني عن اليقين وعن الكمال. ولا أدل على ما نقول من الصدى والأثر الذي أحدثه هؤلاء الصوفية في العالم مغربه ومشرقه، ومما زاد من قيمتهم هذه الموجة العالمية اليوم التي وجدت في التصوف حلولا لمشاكل كثيرة أوقعتها سلطة علم لم تكن مقيدة بضوابط، فكانت لها نتائج وخيمة على الإنسانية. ويكفينا فخرا أن يكون "الأمير عبد القادر" من السباقين إلى العمل على إحياء التصوف علما وسلوكا راقيين، ويتنبه لذلك المستشرقون فيحدثون السبق بالاهتمام بفكره وبإنجازاته السياسية والعرفانية التي نعمل اليوم على إحيائها ومحاولة التعمق أكثر في محتوياتها لسبر أغوارها وإبداع الجديد منها.

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم
- الفتوحات المكية: ابن عربي- تح: عثمان يحي- القاهرة- الهيئة العامة للكتاب- ط2،1985.
- المجتبى من السنن: النسائي- تح: عبد الفتاح أبو غدة – حلب- مكتبة المطبوعات الإسلامية- ط2، 1986م.
- ثلاثة حكماء مسلمين: سيد حسين نصر- تر: صلاح الصاوي- بيروت- دار النهار للنشر- 1971م
- رسالة الطير: ابن سينا- مدينة ليدن- مط. بريل- ط1، 1889.
- رسالة القسم الإلهي: ابن عربي- حيدر آباد الدكن- مط. جمعية دائرة المعارف العثمانية- ط1948،01.
- سنن الترمذي: الترمذي محمد بن عيسى- بيروت- دار الفكر- ط02، 1403هـ/1983م
- فصوص الحكم: ابن عربي- تح: أبو العلا عفيفي-بيروت- دار الكتاب العربي- ط2، 1400هـ/1980م
- قصة الطير: الغزالي (أبو حامد)- ضمن مجموعة رسائل الإمام الغزالي- بيروت- دار الكتب العلمية-1986.
- كتاب الجلالة وهو كلمة الله: ابن عربي- حيدر آباد الدكن- جمعية دائرة المعارف العثمانية، 1368هـ/1948م.
- كتاب المواقف: الأمير عبد القادر- تح: عبد الباقي مفتاح- عين مليلة، الجزائر- دار الهدى للطباعة والنشر-2005.
- كتاب المواقف: الأمير عبد القادر- دمشق- دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر- ط2، 1967م.
- لسان العرب: ابن منظور- تح: بإشراف عبد الله علي الكبير- القاهرة- دار المعارف-1981.

- مجموعة الرسائل والمسائل، ابن تيمية، علق عليها وصححها مجموعة من العلماء بإشراف الناشر- بيروت - دار الكتب العلمية- ط 1، 1403هـ/1983م.
- Le livre de l'arbre et des quatre oiseaux d'Ibn Arabi , رسالة الاتحاد الكوني في حضرة الإشهاد العيني بمحضر الشجرة الإنسانية والطيور الأربعة dans Annales Islamologiques, Tome XVII, Institut française d'Archéologie Orientale de Caire, 17- 1981.